معالمُ من سيرة أبي جعفر الطّبريّ في بغداد

أ.د. إياد عبد الحسين صيهود الخفاجيّ*

الملخّص:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، الحمد لله الذي يُحبّ مَن دعاه خفيًّا، ويُجيب مَن ناجاه نجيًّا، ويزيد مَن كان منه حليًّا، ويُكرم مَن كان له وفيًّا، والصّلاة والسّلام على خير الخلق محمّد الذي أرسله اللهُ هدًى وبشرى للعالمين، وعلى آله الطّيّبين الطّاهرين؛ أمّا بعد:

فقد شهد تاريخ الأمّة الإسلاميّة عديدًا من المفكّرين في مختلَف الميادين، ولكن طغى ميدان العلوم الإنسانيّة في كلّ فروعه على بقيّة الميادين، ولا سيّما في القرون الثّلاثة الأولى من الهجرة المحمّديّة؛ لارتباطه الوثيق بعلوم الشّريعة الإسلاميّة التي أُنزلت على أشرف الخلق نبيّنا محمّد- صلّى الله عليه وآله وسلّم- وقد انبرى لهذه العلوم درايةً وروايةً علماءُ أجلّاءُ نذروا أنفسهم لها، وسهروا للحفاظ عليها وتبويبها والوقوف على مظانّها.

وكان من بين هؤلاء العلماء أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ، الذي شهدت حياته ثراءً علميًا مائزًا باتت فنون المعرفة مجتمعةً فيه، من تفسيرٍ، وفقهٍ، وتاريخٍ، وأخلاق وغيرها من الميادين، فقد شهد له بمعرفته وتميّزه أغلب علماء عصره والذين جاؤوا من بعده، وأصبحت مؤلّفاته منالًا ومَوردًا لمصادر التّاريخ الإسلاميّ، فلا يكاد يخلو كتابٌ- ولا سيّما في باب التّفسير- إلّا وقد اعتمد على تفسير أبي جعفر الطّبريّ، ولا يكاد كتاب يُعنى بالتّاريخ

* جامعة كربلاء- كلّيّة التّربيّة للعلوم الإنسانيّة.

إلّا وقـد اعتمد على أبـي جعفر الطّـبريّ في كتابه الموسوم "تاريخ الرّسل والملوك".

وقد خلّف أبو جعفر الطّبريّ تراثًا موسـوعيًّا، ومُسايرة ومُجالسة، سلّط المؤرِّخون والرّواة عليه أقلامهـم ولكن بصـورة جانبيّة، دفعهـم إلى ذلك مناهجُهم الّتي تبنّوها في تدوين الموروث.

ولعـلّ أهـمّ جانبٍ لم يُشـبع بحثًـا، هو وجود أبي جعفر الطّبريّ في مدينة السّـلام (بغداد)؛ لذا فقد ارتأيتُ البحث فيـه، مُتّبعًا منهجًا تاريخيًّا في مَجالس الطّبريّ ومُسايراته ببغداد.

وانسـجامًا ومنهـج البحـث التّاريخـيّ، فقد قُسّـم هذا البحث على مقدّمة وثلاثة مباحثَ تلتها خاتمة؛ عُنـي المبحث الأوّل بتعريـفٍ موجزٍ بأبي جعفر الطّبريّ؛ (اسمه، ونسبه، وألقابه، وكُناه).

وعُنـي المبحـث الثّاني ببيـان نماذجَ من تنوّع ثقافة الطّبريّ ومَجالسه في بغداد، وقد تناولنا فيه تنـوّع ثقافة الطّبريّ: (جـزء من مجالس الدّرس، والعلوم الّتي درسها).

وعُنـي المبحـث الثّالـث بعـرض نمـاذجَ مـن المُحاجّـات العلميّـة لأبـي جعفر الطّـبريّ وعلماء عـصره في بغـداد، الّتي كانت جُلّها مـع الحنابلة، وأفضت تلك المُحاجّات إلى تمسّـك الطّبريّ بأخلاق العلمـاء وحسـن تصرّفهم في الدفـاع عن صحابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

الكلمـات المفتاحيّة: أبو جعفر الطّبريّ، بغداد، مجالس العلم، الحنابلة، القرن الرّابع للهجرة

المبحث الأوّل: تعريف موجز بسـيرة الطّبريّ :

ممّا لا شكّ فيه أنّ أبا جعفر الطّبريّ اسمٌ اشتُهر في الأمصار الإسلاميّة، وشـكّل اللّبنة الأساس للمادّة العِلميّـة لَمَن كتبَ في التّاريخ وعلوم القرآن والفقه، ولعلّه لشـهرته ليسـت به حاجـة لأن يُعرّف، لأنّ من أشـكل المشـكلات إيضاح الواضحـات، ولكن لـضرورات منهـج البحث العلمـيّ، ارتأيتُ وضع أسطرٍ في سيرته الشّخصيّة.

هـو محمّـد بـن جرير بـن يزيدَ بـن خالد بن كثـير بن غالب[1]، عُرف بالطّبريّ شـهرةً، نسـبةً إلى طبرسـتانَ الّتـي نُسـب إليها جمـع غفير من العلماء[2]. كُنّي بأبي جعفر[3].

وُلد الطّبريّ في آمُلَ بطبرسـتانَ سنةَ ٢٢٤هـ[4]، ونشـأ بين يدي والده الّذي عزم على تربيته تربية دينيّـة، بعدما رأى في منامه رؤيـا تدلّ على تمكُّن ولـده العِلميّ فيما بعد، وممّا يدلّ على ذلك ما ورد عن الطّبريّ نفسه، قوله محدِّثًا عن سيرته العلميّة

(١)«تاريخ بغداد»، الخطيب البغداديّ، (بتحقيق:مصطفى عبد القادر عطا): ٢/٥٤٨؛«الوافي بالوفيات»، الصّفديّ، (بتحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى): ٢/٢١٢.

(٢)«معجم البلدان»، ياقوت الحمويّ، (طبعة دار صادر): ٤/١٣.

(٣)«تاريخ دمشق»، ابن عساكر، (بتحقيق: محبّ الدين العمرويّ): ٥٢/ ١٨٨.

(٤)«طبقات الحفّاظ»، السّيوطيّ (طبعة دار الكتب العلميّة): ص٣١٠.

وبدايات نشـأته: «حفظتُ القرآن ولي سبع سنين، وصلّيـتُ بالنّاس وأنـا ابن ثماني سـنين، وكتبتُ الحديثَ وأنا ابن تسع سنين، ورأى لي أبي في النّوم أنّني بين يدي رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم... فحرص أبـي على مَعونتـي على طلـب العلم وأنا حينئذٍ صبيّ صغير »[٥].

شرع الطّـبريّ بطلب العلم على علماء الأمصار، وهو ابن اثنتي عشرة سـنة، فبدأ بتدوين الحديث في موطنه أوّلًا، ثمّ كانت الرّيّ محطّته الأولى، ومنها إلى بغـدادَ، ثمّ البصرة، ومنهـا إلى الكوفة، ومن ثَمّ عاد إلى بغدادَ مدينة السّلام، إذْ بقي فيها ما تبقّى من حياته[٦].

ألّـف أبـو جعفر الطّبريّ مجموعـةً من الكتب، أهمّ مـا وصل إلينـا منها: كتاب«تاريخ الرّسـل والملـوك»، وكتـاب «جامـع البيان عـن تأويل آي القرآن »، وقد ورد عن الخطيب البغداديّ نقلًا عن الطّبريّ في كيفيّة تأليـف هذَين الكتابَين ما نصُّه: «إنّ أبـا جعفر الطّبريّ قال لأصحابه: أتنشـطون لتفسـير القرآن؟ قالـوا: كم يكون قـدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة. فقالوا: هـذا ممّا تفنى الأعمار قبل تمامه. فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثمّ قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدمَ إلى وقتنا هـذا؟ فقالوا: كم قدره؟ فذكر نحـوًا ممّا ذكره في التّفسـير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنّا لله، ماتت الهمم »[٧].

تُوفّي أبو جعفر الطّبريّ في داره، ودُفن في صحن الدّار الواقعـة برحبة يعقوبَ ببغـدادَ، وذلك ليلة الأحد من أواخر شـوّالَ من سنة ٣١٠هـ، عن عمرٍ جاوز (٨٥) عامًا[٨].

المبحـث الثّاني: ثقافـة الطّبريّ ومجالسـه في بغداد :

الطّبريّ من الشّخصيّات العِلميّة الّتي تركَت أثرًا كبيرًا في الحركة العِلميّة الإسـلاميّة فضلًا عن أثره العلميّ عند أبناء عصره، فقد كانت مجالس درسه حافلـةً بطلّاب العلم، ولا سـيّما في بغدادَ حاضرة الدّولة، ولكن بسبب خلافه مع الحنابلة فقد منعوا الدخـول عليه [٩]، فعندما سُـئِل ابـن خزيمةَ عن الطّـبريّ قال: «ما أعلـمُ على أديم الأرض أعلمَ من محمّد بن جرير، ولقد ظلمَتْه الحنابلة»[١٠].

ذكر عثمانُ بـن أحمدَ الدّيْنَوَريّ أنّه حضر مجلسَ الطّبريّ في بغدادَ ذات مرّة، وحضر المجلسَ الوزيرُ الفضـلُ بـن جعفـر بن الفـرات، وكان قد سـبق

(٥)«معجم الأدباء»، ياقوت الحمويّ، (طبعة دار الكتب العلميّة): ٥ /٢٤٧-٢٤٨.

(٦) المصدر نفسه: ٥/٥٤٨-٥٤٩.

(٧)«تاريخ بغداد»: ٢/١٦٣.

(٨)«وفيات الأعيان»، ابن خلّكان، (بتحقيق: إحسان عبّاس): ٤/١٩٢؛ «تاريخ الإسلام»، الذّهبيّ، (بتحقيق: عمر عبد السّلام تدمري): ٢٣/٢٨٥.

(٩)«تذكرة الحفّاظ»، الذّهبيّ، (طبعة دار الكتب العلميّة): ٢/٧١٢.

(١٠) المصدر نفسه: ٢/٧١٢.

الطّـبريَّ رجلٌ في القراءة، فيبدو أنّه سـكتَ حينما دخـل الوزيرُ ابنُ الفرات، فقال لـه الطّبريّ: لِمَ لا تقرأ؟ فأشـار الرّجلُ إلى الوزير، فقال الطّبريّ: إذا كانت لك النّوبة فلا تكترث لدجلةَ ولا الفرات[١١].

وممّـا قيـل في الطّبريّ وأثـره في التّفسـير ما قاله الإسـفراييـنيّ: «لـو سـافر رجـلٌ إلى الصّين حتّى يحصـل على تفسـير محمّـد بن جريـر، لم يكن كثـيرًا»[١٢].

وممّـا ذكره ابـنُ العماد أيضًـا: «كانت الأئمّةُ تَحكـم بقوله، وتَرجـع إلى رأيه لمعرفتـه وفضله. جمَـع من العلوم ما لم يُشـاركه فيه أحدٌ من أهل عصره »[١٣].

ذكـر ابنُ عسـاكر عن المسـيرة العلميّة للطّبريّ في بغداد، قال: «رجع إلى بغدادَ وصنّف تصانيفَ حسنةً تدلّ على سعة علمه »[١٤]، وقد بقي الطّبريّ عـلى هذه الحـال من بـذْلِ ما لديه مـن العلوم في مجالسه في بغدادَ إلى أن مات فيها، إذ كان «حافظًا لكتاب اللـه، عارفًا بالقراءات، بصـيرًا في المعاني، فقيهًـا في أحـكام القرآن، عارفًا بالسُّـنن وطُرقها وصحيحهـا وسـقيمها وناسـخها ومنسـوخها، عارفًا بأقوال الصّحابة والتّابعين ومَن بعدهم مِن المخالفـين في الأحكام ومسـائل الحـلال والحرام، عارفًا بأيّام النّاس... »[١٥].

وممّـا يُنقـل في براعة الطّبريّ وحُسـن ثقافته في بغـدادَ، أنّـه درَّسَ أولادَ الوزيـر أبـي الحسـن عُبيـد الله بن خاقـان، بعد أن أشـار عليه بعضُ أصحابـه بذلـك، وأوصلوه إلى ابـن خاقان، وكان الطّبريُّ قد اشـترط على الوزير أوقاتَ طلبة العلم، والأكل والـشّرب ، والصّلاة، والرّاحة، وأن يُسـلّفه بعـض المال ليُصلح به أحواله؛ إذ إنّ الطّبريّ حين دخوله إلى بغدادَ لم يكن ميسـورَ الحال ولا سيّما بعـد أن تعرّض للسّرقة، فوافق الوزيرُ ابنُ خاقان على شروط الطّبريّ، فبـدأ بتدريس الأولاد بعد أن افترش بسـاطًا في حُجرة التّأديب، فخرج الصّبيُّ وبيـده لوح قد كتَب فيه، ففـرح أهلُه ومَن كان في القـصر بسرعة إجـادة الصّبيّ وتعلُّمـه، فلم تبقَ جاريـةٌ في القصر إلّا وأهـدت للطّبريّ صينيّةً فيها دراهمُ ودنانـيرُ، فرفض الطّبريُّ أخذها بقوله: قد شُـورطتُ على شيءٍ وما هذا لي بحقٍّ، وما آخذ غير ما شُورطتُ عليه[١٦].

وممّـا يُنقـل أيضًـا عن سـعة ثقافـة الطّبريّ، ولا سـيّما في بغدادَ، ما وقع له مـن محاورات مع الخليفـة المُكتفي، بعد أن طلب الأخيرُ من العبّاس

(١١)«لسان الميزان»، ابن حجر، (طبعة مؤسّسة الأعلمي) ٥/١٠٢؛«مختصر تاريخ دمشق»، ابن منظور، (طبعة دار الفكر): ٢٢/٦٢.

(١٢)«شذرات الذّهب»، ابن العماد الحنبليّ، (بتحقيق: عبد القادر الأرناؤوط): ٤/٥٣.

(١٣) المصدر نفسه: ٤/٥٣.

(١٤)«تاريخ دمشق»: ٥٢/١٩١.

(١٥) المصدر نفسه: ٥٢/١٩٢.

(١٦) المصدر نفسه: ٥٢/١٩٣-١٩٤.

بن الحسن[١٧] ما نصّه: «إنّي أُريد أن أُوقف وقفًا تجتمع أقاويل العلماء على صحّته ويسلم من الخِلاف »[١٨]. فأحضر العبّاسُ الطّبريَّ وأجلسه في دار يسمع فيها المكتفي كلامَه، وأمر المكتفي ببعض كُتّابه من ديوان الوقف، فأملى عليهم الطّبريُّ كِتابًا في ما أراده المكتفي، فلمّا فرغ الطّبريّ وأراد الانصراف، أراد المكتفي إكرامه، إلّا أنّ الطّبريّ امتنع عن ذلك، فقيل له: مَن وصل إلى الموضِع الّذي وصلتَ إليه لا ينصرف إلّا بجائزة أو بقضاء حاجة، فطلب الطّبريّ منه بعض حوائجَ للمصلّين في المسجد قد منعتهم منها الشّرطة، فوافق المكتفي على ذلك[١٩].

استمرّ الطّبريّ بتميّزه العلميّ في بغدادَ، حتّى أنّه يُذكر أنّ الوزير العبّاس بن الحسن طلب من الطّبريّ أن يتفقّه بقوله: «قد أحببتُ أن أنظر في الفِقه، وسأله أن يعمل له مختصرًا على مذهبه، فعمل له كتابَ الخفيف، وأنفذه إليه، فوجّه إليه بألف دينارٍ، فردّها عليه ولم يقبلها، فقيل: تصدَّق بها، فلم يفعل، وقال: أنتم أولى بأموالكم، وأعرف بمن تَصدّقون عليه »[٢٠].

وذكر الحمويُّ ما يؤكّد طولَ باعِ الطّبريّ في النّحو وآداب اللّغة العربيّة عند وجوده ببغداد، فقال: «وقال أبو بكر ابنُ مجاهد: قال أبو العبّاس يومًا: مَن بقي عندكم- يعني في الجانب الشرقيّ ببغدادَ- من النحويّين؟ فقلتُ: ما بقي أحدٌ، مات الشّيوخ، فقال: حتّى خلا جانبكم؟ قلتُ: نعم، إلّا أن يكون الطّبريّ الفقيه، فقال لي: ابن جرير؟ قلتُ: نعم، قال ذاك من حُذّاق الكوفيّين، قال أبو بكر: وهذا من أبي العبّاس كثيرٌ، لأنّه كان شديد النّفس، شرس الأخلاق، وكان قليل الشّهادة لأحد بالحذق في علمه »[٢١].

١.العلوم الّتي درّسها:

كان الطّبريُّ مُتّقد الذّهن، شديد الذّكاء والفطنة، حاويًا لعلوم عديدة، أبرزها العلوم الدّينيّة مِن فِقهٍ وتفسير، فضلًا عن براعته في علم التّاريخ، فقد جمع من العلوم ما لم يُشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره، وكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالِمًا بالسُّنن[٢٢]، وقد شهد بذلك تلامذتُه، فهذا تلميذه أبو بكر بن كامل البغداديّ يقول: «لم أرَ بعد أبي جعفر أجمعَ للعلمِ وكُتبِ العلماء ومعرفةِ اختلاف

(١٧) أبو أحمد العبّاس بن الحسن بن أيّوب بن سليمان الجرجائيّ، وُلد ليلة مقتل المتوكّل العبّاسيّ، استوزره الخليفةُ المكتفي العبّاسيّ بين سنة ٢٩١-٢٩٦هـ، كان بليغًا أديبًا كاتبًا نهمًا، يقول فيه أحدُ وزراء المكتفي العبّاسيّ: إنّ قلمه تسبق لفظه، دلالة على سرعته في الكتابة. «سير أعلام النّبلاء»، الذّهبيّ، (بتحقيق: شعيب الأرنؤوط): ١٤/٥٢.

(١٨)«تاريخ دمشق»: ٥٢/١٩٣-١٩٤.

(١٩) المصدر نفسه: ٥٢/١٩٣-١٩٤.

(٢٠)«سير أعلام النّبلاء»: ١٤/ ٢٧٠.

(٢١)«معجم البلدان»: ٥/ ٢٥٤.

(٢٢)«تاريخ بغداد»: ٢/ ١٦٢.

الفقهاء وتمكّنه من العلوم منهُ، لأنّي أروّضُ نفسي في عمَلِ مُسْـنَدِ عبد الله بن مسعود في حديثٍ منه، نظـيرَ مـا عمله أبو جعفـر، فما أُحسِـنُ عملَه ولا يَسـتوي لي »[٢٣]، أمّا تلميذه عبد العزيز بن محمّد فذكـر أنّ الطّـبريّ كان راجحًـا في علـوم القرآن والقراءات وعلم التّاريخ واختلاف الفقهاء[٢٤].

٢. مجالسه العلميّة:

كانـت للطّـبريّ شـهرة بالعلـوم الدّينيّة، فقد اتّخـذت المرتبـة الأولى في العلـوم الّتـي درسّـها، ولا سـيّما الفِقـه على المذهـب الشّـافعيّ، وكانت هذه الشّـهرة من أسـباب بثّ الشّـافعيّة في بغداد وانتشـارها[٢٥]، وقد نُقل عن الطّبريّ بهذا الشّـأن قولـه: «أظهرتُ فِقه الشّـافعيّ وأفتيتُ به ببغداد عشرَ سـنين، وتلقّنه منّي ابنُ بشّار الأحول أستاذ أبـي العبّاس ابن سُريـج »[٢٦]. وفضلًا عن الإفتاء ونبوغه فيه، فقـد درّسَ الطّبريّ علومَ القرآن، ولا سـيّما التّفسـير، ومِن أبرز مَن أخذ عنه التّفسـيرَ ابنُ خزيمة[٢٧]، الّذي قرأ تفسـير الطّبريّ لسـنين، من أوّلـه إلى آخره، ثمّ قال عنه إنّـه لا يعلمُ بأعلم منه[٢٨].

(٢٣)«معجم الأدباء»: ٥/ ٢٦٣

(٢٤) المصدر نفسه:٥/ ٢٥٤.

(٢٥)«طبقات الحُفّاظ»: ١/ ٣١١.

(٢٦)«طبقات الشّافعيّة»، ابن قاضي شهبة، (بتحقيق: الحافظ عبد العليم خان): ٣/ ١٢٣.

(٢٧)«معجم الأدباء»: ٥/ ٢٤٣.

(٢٨)«تاريخ بغداد»: ٢/ ١٦٣.

وكان الطّـبريّ يقـول لأصحابـه: «أتنشـطون لتفسـير القرآن؟ قالـوا: كم يكون قـدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هـذا ممّا تفنى الأعمار قبل تمامه »[٢٩].

وإنّ المطّلع على كتاب «تاريخ بغداد » للخطيب البغـداديّ، يجد عددًا من العلمـاء كانوا يرتادون مجلـسَ الطّبريّ في بغداد، فقـد ورد فيه ما يقرب من ثلاثين موضعًا لسـماع العلماء من الطّبريّ في بغدادَ، وكان ذلك لمختلَف العلوم، جاء في مقدّمتها علومُ القرآن والفِقه والحديث[٣٠].

اعتـادَ الطّـبريُّ أن يُلقـي دروسَـه بمسـجدٍ ببغـدادَ، ويقرأ فيـه القرآن، حتّى عُرف بمسـجد الطّـبريّ، وذكـر الخطيـبُ البغـداديّ وقوف أبي بكر ابن مجاهد في بـاب مسـجد الطّبريّ يسـتمع لقراءتـه[٣١]، لكنّ العداء بـين الحنابلة والطّبريّ تسـبّب بمنع النّاس من الدخول إليـه، لذلك نجد هنـاك غموضًا يحيط نشـاطه العلميّ ببغداد، ولا سـيّما بمجالس درسـه، من حيث أماكن تدريسه وتلاميـذه، ولعلّ بعضًا من طُلّاب العلم كان يرتاد داره خِفيةً، لذلك لم تكن لمدرسـته في بغداد شهرة مثل مدارس باقي العلماء الّذين عاصروه.

(٢٩) المصدر نفسه: ٢/ ١٦٣.

(٣٠)المصدر نفسه: ٢/ ١٥٣؛ ٣/ ٢٥؛ ٣/ ٢١٣؛ ٤/ ٣١٥؛ ٥/ ٤٦٥؛ ٧/ ٢٣٢؛ ١١/ ٣٢٤، ٣٨٤؛ ١٣/ ٦٤.

(٣١)«تاريخ بغداد»: ٢/ ١٦٢.

٣. ثقافة الطّبريّ بأمور الطّبّ:

ممّـا يلفـتُ النّظـرَ أنْ تجد عالمًـا في التّاريخ، والتّفسـير، والعقائـد، والفِقه، وهـو يعلم بأمور الطّبّ بما يتوافـق وعلماء عصره من الأطباء، فقد حفظ لنا التّاريخ شذراتٍ من حواريّات طبِّيَّة وجَّه بها الطّـبريّ بعضَ النّـاس، وكان يعمل بها وهو ببغدادَ. منهـا مثلًا أنّه كان لا يأكل الدّسَـم وإنّما كان يـأكل اللّحم الأحمر الـصّرف، ولا يطبخه إلا بالزّبيب. وكان يقول: السّمين يلطّخ المعدة، وكان يتجنّب السّمسـم والشّـهد، ويقول إنّهما يفسدان المعدة ويغـيّران النّكهة، ويقـول: إنّ التّمر يلطّخ المعدة، ويُضعف البصر، ويُفسـد الأسنان، ويفعل في اللّحـم كذا وكـذا[٣٢]؛ فحاجَّه أحـدُ أصحابه في مقولتـهِ هذه، وهـو أبو علي الصّـوّاف بقولهِ: «أنا آكلـه طول عمـري ولا أرى منـه إلّا خـيرًا. فقال أبـو جعفـر: ومـا بقـي عـلى التّمـر أن يعمل به أكثـر ممّـا عمل! قـال: وكان الصّـوّاف قد وقعتْ أسـنانُه، وضعف بصـره، ونحف جسـمُه، وكثر اصفراره »[٣٣].

وكان الطّـبريّ: «لا يـأكل من الخبز إلا السّـميذ لأجـل غسـل القمح، لأنّ مـن مذهبه أن الشّـمس والنّار والرّيح لا تُطهِّر نجسًـا، وكان ربّما أكل من العنـب الرّازقيّ والتّين الوزيـريّ والرّطب، وربّما أخذ له من اللّبـن الحليب من غنم ترعى، فيُصفّى ويُجعل في قِـدر على النّار حتّى يذهـب منه جزءٌ، ثم يُثرد في الإناء، ويُصبّ عليه اللّبن الحارّ. ويدَعه حتّـى يبرد ويطـرح عليه الصّعتر وحبّة السّـوداء والزّيت »[٣٤].

وممّـا تجدر الإشـارة إليه أنّ عـليّ بن عيسى[٣٥] سمع أنّ أبا جعفر الطّبريّ معلولٌ بعلّة، فأرسل له طبيبًا، فحـاوره الطّبيبُ عن علّته، ووصف له أبو جعفر ما اسـتعمله من علاج، فأجابه الطّبيب:«ما عندي فوق ما وصفته لنفسـك شيء، والله لو كنتَ في ملّتنا لعُددت من الحواريّين، وفّقك الله«ثمّ جاء إلى علي بن عيسى فعرّفه ذلك، فأعجبه »[٣٦].

وممّا نُقل عن معرفة الطّبريّ في أمور الطّبّ أنّ أبا العبّاس ابن المغـيرة الثلّاج قال: «لمّا اعتلّ ابني أبو الفرج، وكان حسَن الأدب، ويتفقّه على مذهب أبي جعفر، قال لي أبو جعفر: تقبّلُ منّي ما أصفه لـك؟ فقلتُ: نعم، وكنتُ أتـبرّك بقوله ورأيه. قال: احلق رأسـه، واعمل له جوذابة سـمينة من رقاق، وأكثِر دسـمَها، وقدّمها إليـه، وأطعمه منها حتّى يمتلئ شـبعًا، ثمّ خذ ما بقي فاطرحه على دماغه، واحـرص أن ينام على حاله تلـك، فإنّه يصلح إن

(٣٢)«معجم الأدباء»: ٥/٢٧٣.

(٣٣) المصدر نفسه: ٥/٢٧٣.

(٣٤)«معجم الأدباء»: ٥/٢٧٣.

(٣٥) أبو الحسن عليّ بن عيسى بن داوود البغداديّ، عمل وزيرًا للخليفتَين المقتدر والقاهر، ولد في بداية سنة ٢٤٠هـ، كان أديبًا حافظًا للقرآن، تُوفّي في آخر سنة ٣٣٤هـ. «سير أعلام النّبلاء»: ١٥/٢٩٨-٣٠١.

(٣٦)«معجم الأدباء»: ٥/٢٧٥.

شاء الله تعالى. ففعلتُ، فكان سببَ بُرئه»[٣٧].

المبحث الثّالث: مِحنة الطّبريّ في بغداد

عانى الطّبريّ من الاضطهاد الفكريّ بسبب آرائه الفقهيّة والعقديّة، وإنّ المُطّلع على ما قاله أرباب التّراجم في سيرته، يجد أنّ هناك حيفًا كبيرًا وقع عليه، أدّى إلى أن يكون جليسَ داره.

ويمكن القول إنّ محنة أبي جعفر الطّبريّ تنقسم على سببين: الأوّل (تشيّعه). والثاني (خِلافه مع الحنابلة) في بغداد.

أوّلًا. نَعت الطّبريّ بالتّشيُّع:

شكّل العامل المذهبيّ سببًا رئيسًا للتّضعيف، وإنّ المطّلع على كتب التّوثيق والتّضعيف والتّراجم يجد ذلك جليًّا في كتاباتهم، ونقصد بالعامل المذهبيّ هو المذهب الّذي ينتمي إليه المُتَرجَم له، ومدى اختلافه مع مذهب المؤلِّف، سواء في تقوية الضّعيف أو تضعيف القويّ، حتّى أنّ بعض العلماء عُرف عنهم التّجريح للعلماء المخالفين لهم فكريًّا، فهذا الجوزجانيّ كان يَتّهم كلّ مَن يُخالفه في المذهب، إذ قال فيه ابن حجَر: «كان شديد المَيْل إلى مذهب أهل دمشقَ في المَيْل على عليّ»[٣٨]، لذا نرى أنّه حين يُترجم لشخصيّاته يجعل السّبب الرئيس للتّضعيف هو التّشيُّع، فمثلًا حين يُترجم لعليّ بن مهران الطّبريّ، يصفه بقوله: «كان رديء المذهب»[٣٩]، في حين قال عنه ابنُ عَديّ:«وعليّ بن مهران يروي عنه أهل الرّيّ، ولا أعلم فيه إلّا خيرًا، ولم أجد له حديثًا مُنْكَرًا فأذكره»[٤٠].

وقد تعرّض الإمام الشّافعيّ- رحمةُ الله عليه- للقدح بتشيّعِهِ واتّباعِهِ مذهب أهل البيت- عليهم السّلام- حتّى أنّ الإمام أحمدَ بنَ حنبل سُئِل ذات مرّة عن الشّافعيّ وتشيّعه، فامتعض كثيرًا حينما سأله أحدهم عن ذلك: «يا أبا عبد الله، فإنّ يحيى بن معين وأبا عُبيد الله لا يرضيانه: يعني في نسبتهما إيّاه إلى التّشيّع. فقال أحمدُ: ما أدري ما يقولان؟! والله ما رأينا منه إلّا خيرًا، ولا سمعنا منه إلّا خيرًا. ثمّ قال أحمدُ لِمَن حوله: اعلموا رحمكم الله، أنّ الرّجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئًا من العلم وحُرِمَه قرناؤه وأشكاله، حسدوه فرمَوه بما ليس فيه، وبئستِ الخِصْلة في أهل العلم »[٤١].

لاحظ جواب الإمام أحمدَ بنِ حنبل الّذي خلا تمامًا من أيّ تهمة، مع علمه بأنّ مذهب الشّافعيّ فيه مَيْلٌ واضحٌ لمذهب أهل البيت (عليهم السّلام)، كيف لا وقد سمع منه الإمام أحمدُ بنُ حنبل مجالسه لأيّامٍ ولياليٍ عدّة بحسب ما وصفه حينما سُئل عنه: «... قال أحمدُ: لقد مَنّ اللهُ علينا به. لقد كنّا تعلّمنا كلامَ القوم وكتبنا كُتبَهم حتّى قدِمَ علينا الشّافعيّ، فلمّا سمعنا كلامه علِمنا أنّه أعلم

(٣٧) المصدر نفسه: ٥/ ٢٧٤.

(٣٨)«تهذيب التّهذيب»: ١/ ١٥٩.

(٣٩)«أحوال الرّجال»: ١/ ٢٠٧.

(٤٠)«الكامل في ضعفاء الرّجال»: ٥/ ٢٠٢.

(٤١)«مناقب الشّافعيّ»، البَيْهَقِيّ: ٢/ ٢٥٩.

مِـن غيره، وقد جالسـناه الأيّامَ واللّيـاليَ فما رأينا منه إلّا كلَّ خير، رحمةُ الله عليه »[٤٢].

وقـال الإمـام الشّـافعيُّ بحقِّ الإمـام أحمدَ بنِ حنبـل: «خرجتُ من بغداد، فمـا خلّفتُ بها رجُلاً أفضل، ولا أعلم، ولا أفقـه، ولا أتقى من أحمدَ بنِ حنبل »[٤٣]؛ إذن لماذا هذا الإجحافُ بحقِّ العلماء؟ ولماذا هذا الصّراع العقديّ الّذي يَندى له الجبينُ؟ وقد نـالَ الطّبريَّ ما نالَ مَن سـبقَه مِـن العلماء، الّذين ضُعِّفوا بسـبب ميولهـم المذهبيّة أو آرائهم الفِقهيّة، إذ ذكر ابـنُ الأثير في معرض حديثه عن وفـاة الطّـبريّ، أنّ الحنابلة ادّعوا عليـه الرَّفْضَ، ثـمّ ادّعـوا عليـه الإلحـاد[٤٤]، وكذلـك ابـنُ كثير أَرجـعَ اتّهام الطّبريّ إلى الحنابلـة[٤٥]، أمّا الذّهبيُّ فقد وصفـه قـائلًا: «فيه تشـيُّعٌ يسـيرٌ ومـوالاةٌ لا تضرّ »[٤٦]، أمّا ابنُ حجر فقد نقلَ الإشكال الّذي وُضع على الطّبريّ بكتابته للرّوافض بقوله: «كان يضَـعُ للرّوافـض »[٤٧]، ولعلّ أبرز الأسـباب الّتي دعَت أن يُعدّ الطّبريّ شيعيًّا مِن وجهة نظر بعض الرّواة والمؤلّفين، هي:

١. أنّ الطّـبريّ ألّف كتابًا في غدير خُمّ، وبحسـب وصف مَن ذكره أنّه (صحّح حديث غدير خُمّ)[٤٨] على إثر تكذيب بعض شـيوخ بغدادَ هذا الحديث، إذ قالـوا: إنّ الإمـام عـليّ بـن أبـي طالـب- عليه السـلام- كان باليمَن في الوقت الّذي كان رسـول الله- صلّى اللهُ عليه وآله وسـلّم- بغديرِ خُمّ، فلمّا بلـغ أبا جعفر ذلك ابتدأ بالكلام في فضائل علي بن أبي طالب- عليه السّلام- وذكرَ طُرَقَ حديثِ خُمّ، فكثُر النّاسُ لاسْـتماع ذلك منه[٤٩]. قال ابنُ كثير: «رأيـتُ له كتابًا جمـعَ فيه أحاديثَ غديـرِ خُمّ في مُجلّدَين »[٥٠].

٢. تأليـفُ الطّبريّ كتابًا في حديث الطّائر[٥١]، وقد

(٤٢) المصدر نفسه:٢/٢٥٩.

(٤٣)«سِيَر أعلام النّبلاء»: ١١/١٩٥.

(٤٤)«الكامل في التّاريخ»، ابن الأثير، (بتحقيق: عبد الله القاضي): ٧/٩.

(٤٥)«البداية والنّهاية»، ابن كثير، (بتحقيق: علي شيري): ١١/١٤٦.

(٤٦)«ميزان الاعتدال»، الذّهبيّ، (بتحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود): ٦/٩٠.

(٤٧) المصدر نفسه: ٥/١٠٠.

(٤٨) المصدر نفسه: ٥/١٠٠.

(٤٩)«معجم الأدباء»: ٥/٢٦٩.

(٥٠)«البداية والنّهاية»:١٢/١٤٧.

(٥١) حديث الطّائر أو الطّير أو الطّائر المشويّ، ورد ذكره في أغلب المصادر الإسلاميّة، وبرغم إنكاره من لدن بعض المصادر إلّا أنّه مشهور، وملخّصه أنّ النّبيّ محمّدًا- صلّى الله عليه وآله- حصل على طائر مشويّ- سواء من باب المعجزة أو الهديّة- فتمنّى أن يُشاركه فيه أحبّ خلق الله، فيأكل منه معه، فدخل عليه عليّ بن أبي طالب (عليه السّلام). وقد نقلت لنا كتبُ الحديث بأغلبها أنّ أصل الحديث رُوي عن أنس بن مالك. للاطّلاع على ما كُتب عن هذا الحديث، راجع:«التّاريخ الكبير»، البخاريّ، (بتحقيق: محمّد الدّباسيّ):٢/٢؛ و«مناقب آل أبي طالب»، ابن شهر آشوب، (طبعة المطبعة العلميّة): ٢/٢٨٣؛ و«البداية والنهاية» : ٧/٣٨٧.

بقـي هذا الكتـابُ إلى أيّام ابن كثـير، فقد أفردَ له ابـنُ كثيرٍ بابًا خاصًّا تحـت عنوان: «حديث الطّـير» وقـال في هذا الباب: «وهـذا الحديث قد صنّـف النّـاسُ فيه، وله طُـرُقٌ متعـدّدة، وفي كلٍّ منهـا نظر، ونحن نشـير إلى شيء مـن ذلك... عن أنس، كان عند النبي- صلّى الله عليه وسلّم- طيرٌ، فقـال: اللّهم ائتني بأحبّ خلقـك إليك يأكل معي مـن هذا الطّير، فجاء عليٌّ فـأكل معه... وقد جمع النّاس في هذا الحديـث مصنّفات مفردة... ورأيتُ فيـه مجلّدًا في جمع طُرُقِه وألفاظه لأبي جعفر بن جريـر الطّبريّ المُفسّر صاحب التّاريخ»[٥٢]، وعلى الرّغم من أنّنا لا نعرف تاريخ تأليفه لهذا الكتاب، ولا مناسـبة التّأليف، إلّا أنّنا نُرجّـح أنّه ألّفه إبّان مـا ألّف كتاب الولاية أو كتـاب غدير خُمّ، على إثر الخـلاف الّـذي وقع بينـه وبين عبد اللـه بن أبي داوود السّجسـتانيّ الّـذي كان يبغض الإمام عليّ بـن أبي طالب- عليه السـلام- كما سـيمرّ بنا في مُحاجّاته معه[٥٣].

٣. رأيه في تفسير آية الوضوء: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِـلُوا وُجُوهَكُـمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِـقِ وَامْسَـحُوا بِرُءُوسِـكُمْ وَأَرْجُلَكُـمْ إِلَى الْكَعْبَـيْنِ)[٥٤]، فقـد قـال القرطبيّ نقـلًا عن ابن العربـيّ: «اتّفقـت العلماءُ على وجوب غسـلهما، ومـا علمتُ مَن رَدَّ ذلك سـوى الطّـبريّ من فقهاء المسـلمين، والرّافضةِ»[٥٥]، وإلى ذلك يشير النّوويّ بقولـه: «فذهب جمعٌ من الفقهاء من أهل الفتوى في الأعصار والأمصار، إلى أنّ الواجب غسل القدمين مع الكعبين... وقالت الشّـيعةُ: الواجب مسحهما، وقـال محمّد بـن جرير والجبّائـيّ رأس المعتزلة: يتخيّر بين المسح والغسل»[٥٦].

وقد بُنيت آراء الفقهاء حول الطّبريّ من خلال تفسيره للآية، وكما هو معروف أنّ تفسير الطّبريّ كان مُعتمـدًا عـلى جمـع المرويّـات التّاريخيّة في التّفسير وعرضها، فضلًا عن أنّ منهجه في التّفسير هو بيان الوجوه المحتملة للآيات، وهذا ما أوضحه الطّـبريّ بقوله: «إذ كان الّذي قصدنا له في كتابنا هذا البيان عن وجوه تأويل آي القرآن دون وجوه قراءته»[٥٧]، لـذا لا يمكن أن يبتّ بميوله المذهبيّة بالاعتماد على تفسيره فحسب.

ولأجـل ما تقدّم ذِكْره نرى أنّ بعض العلماء من المتأخّريـن حاولوا إبعاد الطّـبريّ عن كلّ ما تقدّم بحجّة تشـابه اسـمه مع مؤلّفٍ آخَرَ عاصره، هو محمّد بن جرير بن رسـتم، وقـد ميّز بين الاثنين الذّهبـيُّ بقولـه: «أقذع أحمدُ بن عليّ السّـليمانيّ الحافـظ، فقـال: كان يضـعُ للرّوافـض، كذا قال

(٥٣)«سِيَر أعلام النّبلاء»: ١٤/ ٢٧٥.

(٥٤) المائدة/٦.

(٥٥)«الجامع لأحكام القرآن»، تفسير القُرطبيّ، (طبعة دار إحياء التّراث العربيّ): ٦/ ٩١.

(٥٦)«شرح صحيح مسلم»، النّوويّ، (طبعة دار الكتاب العربيّ): ٣/ ١٢٩.

(٥٧)«جامع البيان»، الطّبريّ، (طبعة دار الفكر): ١/ .

(٥٨)«ميزان الاعتدال»: ٣/ ٤٩٩.

السّـليمانيّ، وهذا رَجْـمٌ بالظّنّ الـكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمّة الإسلام المُعتمَدين، وما ندّعي عِصمته من الخطأ، ولا يحلّ لنا أنّ نؤذيه بالباطل والهوى، فإنّ كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يُتأنّى فيه، لا سيّما في مثل إمام كبير »[٥٨].

وهنا يأتي السّـؤال: ما الضّير المُترتّب على تشـيُّع الطّـبريّ؟ وهـل أثّر ذلك على الـتُّراث الّذي خلّفه- رحمةُ الله عليه- من حيث المَساس بمعتقدٍ ما؟ أم طائفة معيّنة؟

مـن المؤكّـد أنّ الطّـبريّ كان مُنصِفًـا لجميـع الصّحابة، في احترامهم والكتابة في فضائلهم، ففي الوقـت الذي ألّفَ فيـه كتابًا في حديـث الولاية أو حديـث غدير خُـمّ، ردًّا على بعض مَـن أنكر ذلك، نجـده يؤلّف كتابًا في فضائـل الخليفتَين أبي بكرٍ الصّدّيق وعمرَ بـنِ الخطّاب، وكان ذلك في بغدادَ، قـال الحمـويّ: «فبدأ بفضائـل أبي بكـرٍ وعمرَ (رضي الله عنهما)، ثمّ سأله العبّاسيّون في فضائل العبّاس، فابتدأ بخطبة حسنة وأملى بعضه... »[٥٩].

وحينما ذهب الطّبريّ إلى طبرستانَ ووجد أهلَها يَنالون بالسّـبّ مِن شـخص الخليفتـين أبي بكرٍ وعمـرَ، فألّـف كتابًا خاصًّـا في فضائلهما، وخرَج مـن البلدة خوفًا من أن ينالـه أذًى، قال الحمويّ: «قال عبدُ العزيز بـن محمّد الطّبريّ: أخبرني غيرُ واحدٍ من أصحابنا، أنّه رأى عند أبي جعفر شيخًا مُسِـنًّا، فقـام له أبو جعفـر وأكرمه، ثـمّ قال أبو جعفر: إنّ هذا الرّجل ناله فيّ ما قد صار له عليّ به الحقّ الكثير، وذلك أنّي دخلتُ إلى طبرسـتانَ، وقد شاع سبُّ أبي بكرٍ وعمرَ فيهما، فسألوني أن أُملي فضائلهما ففعلتُ، وكان سلطانُ البلدة يكره ذلك، فاجتمـع إليه مَن عرّفه ما أمليتُه، فوجّه إليّ، فبادر هذا وأرسل إليّ مَن أخبرني أنّي قد طُلبتُ، فخرجتُ من وقتي عن البلد ولم يشـعر بي، وحصل هذا في أيديهم، فضرب بسببي ألفًا »[٦٠].

ويتّضـح مِـن النّصَّـين السّـابقَين أنّ الطّبريّ ربّما ألّف كُتُبًا في الدِّفاع عن الصَّحابة وليس كِتابًا واحـدًا، فقد ألّف بعضها في بغدادَ، والبعض الآخر في طبرسـتانَ، وهذا يـدلّ على حياديّتـه في النّظر لتاريخ الصّحابة وفضائلهم على حدٍّ سواء.

ثانيًا: مُحاجّات الطّبريّ وعلماء عصره:

كان مـن المؤكّـد أن نجد للـتُّراث الّذي انماز به الطّبريّ أثرًا علميًّا واضحًا في المجتمع البغداديّ، ولا سـيّما المجتمع العلميّ، وكان مِن أبرز الآثار الّتي خلّفها أبو جعفر الطّبريّ المُحاجّات العلميّة والآراء الّتي طرحَها، والّتي سـبّبت له كثـيرًا من الرّدود، بل أثّرت عـلى حياته الاجتماعيّة، وكان من أبرزِها مُحاجّاته مـع أصحاب المذهب الحنبليّ، لأسـباب تتعلّق برأيه بالإمامِ أحمدَ بنِ حنبل (ت ٢٤١هـ)، أو تلك الّتي تتعلّق بمُحاجّاته مع مَن أنكر فضائل الإمام علي بن أبي طالب- عليه السلام- كالمتعلّقة

(٥٢)«البداية والنّهاية»:٧/ ٣٨٧.

(٥٩)«معجم الأدباء»: ٦/ ٤٦٤.

(٦٠) المصدر نفسه: ٦/ ٤٦٤.

بحديث غدير خُمّ أو ما سُمّي اشتهارًا بحديث الولاية؛ فضلًا عن مُحاجّاته العلميّة الأخرى الّتي أفضت إلى تأسيس مذهبٍ علميّ خاصّ بالطّبريّ، عُرف فيما بعد باسْم (المذهب الجريريّ).

١. مُحاجّاته والمذهب الحنبليّ:

إنّ العلماء أينما حلّوا، لا تأخذهم في الله لومةُ لائم في الإبداء بآرائهم العلميّة الّتي تنمُّ عن وعيهم وطبيعة تراكمهم المعرفيّ، وكان الطّبريّ قد أبدى رأيه بالإمام أحمدَ بنِ حنبل، بل قُل بتراث الإمام أحمدِ بنَ حنبل، الأمر الّذي أغاض مُتّبعيه، وقد نشَب الصّراع في بغدادَ على إثر ذلك، وأصبح الطّبريُّ محطّة خلافٍ لم تسلَم من محبِّي الامامِ أحمدَ.

كان الحنابلةُ قد قويَت سطوتُهم في العصر العبّاسيّ الأوّل، ولا سيّما بعد مسألة القول بخلق القرآن الّتي امتُحن بها العلماء، فاشتدّت معارضتُهم لمخالفيهم، وكان الطّبريّ من العلماء الّذين تعرّضوا لبطش الحنابلة حتّى وفاته، وكان رأس الخلاف بينه وبينهم هو المناظرة الّتي عقدَها مع أبي بكر محمّد بن داوودَ الظّاهريّ.

•محاجّة الطّبريّ وخلافه مع داوود بن عليّ الأصفهانيّ وولده محمّد:

تعود علاقة أبي جعفر الطّبريّ بأبي بكر الظّاهريّ إلى الزمّن الذي أن كان الطّبريّ يدرس فيه الفقه الظّاهريّ على يد والده داوودَ بن عليّ الأصبهانيّ، كبير فقهاء الظّاهريّة في بغدادَ[٦١]. قال ياقوت الحمويّ: «وكان داوودُ بن عليّ قد أخذ من النّظر ومن الحديث ومن الاختلاف ومن السُّنن حظًّا ليس بالمتّسع، وكان بسيط اللّسان، حسَن الكلام، مُتمكّنًا من نفسه، وله أصحابٌ فيهم دُعابة قد تمكّنَت منهم حتّى صارت لبعضهم خُلقًا يستعمله في النّظر لقطع مخالفيه »[٦٢].

وربّما يعود تمكُّن أبي جعفر الطّبريّ من شيخه داوودَ بن عليّ أنّه جالسَه مدّة، واطّلع على كتبه، فعرف منها ما يعرفه العالمُ من رجال عصره، إذ «أنّ أبا جعفر كان قد لزم داوودَ بن عليّ مدّةً، وكتب من كتبه كثيرًا »[٦٣]، الأمر الّذي دعا الطّبريّ إلى أن يُصنِّف كتابًا سمّاه:«الرّدّ على ذي الأسفار»، يردّ فيه على داوودَ بن عليّ الأصبهانيّ[٦٤].

ويُورد الحمويّ المُحاجّات الّتي وقعَتْ بين الطّبريّ وداوودَ بن عليّ بقوله: «وجرَت مسألة يومًا بين داوودَ بن عليّ وبين أبي جعفر، فوقف الكلام على داوودَ بن عليّ، فشقّ ذلك على أصحابه، وكلّم رجلٌ من أصحاب داوودَ بن عليّ أبا جعفر بكلمةٍ مضّة، فقام من المجلس وعمل هذا الكتاب، وأخرج منه شيئًا بعد شيء، إلى أن أخرج منه

(٥٢)«البداية والنّهاية»:٧/٣٨٧.

(٥٩)«معجم الأدباء»: ٦/٤٦٤.

(٦٠) المصدر نفسه: ٦/٤٦٤.

(٦١)«معجم الأدباء»: ٥/٢٦٥.

(٦٢) المصدر نفسه: ٥/٢٦٥.

(٦٣) المصدر نفسه: ٥/٢٦٥.

(٦٤)«الوافي بالوَفَيَات»: ٢/٢١٣.

قطعـةً نحوَ مئـة ورقـة، وكان ابتدأ الـكلامَ فيه بخطبـة من غير إملاء، وهو مـن جيِّد ما عملَه أبو جعفـر، ومِن أحسـنه كلامًا فيه حمـلًا على اللّفظ عليه »[٦٥]، فكتـب الطّبريّ نحو مئة ورقة من هذا الكتاب، ثمّ قطـع ذلك بعد ما مات داوودُ بن عليّ، ثمّ تعرّض ابنُه (محمّد بن داوودَ بن عليّ) للرَّدّ على أبي جعفر فيما رده على أبيه، فتعسَّف الكلامَ على ثلاث مسائل خاصّة، وأخَذ في سبِّ أبي جعفر[٦٦].

وقد شـهد لأبي جعفر كثيرٌ من العلماء بغزارة علمه، فـكان: «مليئًـا بما نهض فيه مـن أيّ علمٍ كان، وكان متوقّفًـا عن الأخلاق الّتي لا تليق بأهل العلـم، وكان يُحبّ الجِـدّ في جميـع أحواله »[٦٧]، وربّما يكون هذا سببًا مهمًّا من أسباب خلافه مع داوودَ بن عليّ، الّذي يملأ مجالسـه بالأصحاب من ذوي الدّعابة كما ذكر الحمويّ.

•خـلاف الطّبريّ مـع عبد الله بـن أبي داوودَ السّجستانيّ:

عبـد اللـه هذا هو ابن المحدِّث صاحب السُّـنن أبي داودَ السّجسـتانيّ (ت ٢٧٥هـ)، فمن المعلوم بطبيعـة الحـال أنّ أبـا داوودَ السّجسـتانيّ كان أحـد تلاميذ الإمـامِ أحمدَ بـنِ حنبـل، وقد درس عـلى يده السُّـنَن[٦٨]، قـال الذّهبيّ في أبـي داوودَ السّجسـتانيّ: «صنَّفَ السُّنَنَ، فعرضَه على الإمامِ أحمدَ فاستجاده واستحسنه »[٦٩].

وقـد غضب عبدُ الله بن أبي داوودَ من الطّبريّ؛ لأنّه اسـتعبر ذِكر الامامِ أحمدَ بنِ حنبل في الكتاب الّـذي ألّفه تحت عنوان: (اختـلاف الفقهاء)، فقد ذكرَ الفقهاءَ ولم يذكر ابنَ حنبل، وحين سُـئِل عن سـبب إغفاله له قال: «لم يكن ابـنُ حنبل فقيهًا، وإنّمـا كان مُحدِّثًا »[٧٠]، فمن هنا بدأ الخلاف بين الطّبريّ وعبد الله بن أبي داوودَ السّجستانيّ.

وزاد الخلافُ شـيئًا فشيئًا، حتّى وقع كلامٌ بين ابن جرير وبين ابن أبي داوودَ، وكان كلٌّ منهما لا يُنصف الآخَر، والسّـبب أنّ أبـا داوودَ كان ينصب العداء لعليّ بن أبي طالب- عليه السلام-، ويكذّب حديـث الغديـر، وقـد عارضـه الطّـبريّ في ذلك، الأمر الذي دعـا الطّبريّ إلى تأليـف كتاب بعنوان «الفضائـل »، كما قال الذّهبيّ:« ولمـا بلغه أنّ أبا بكـر بن أبي داوودّ تكلّم في حديث غدير خُمّ، عمل كتـاب الفضائل، فبـدأ بفضل أبي بكـرٍ، ثمّ عمرَ، وتكلّـم عـلى تصحيح حديـث غدير خُـمّ، واحتجّ لتصحيحه، ولم يُتمّ الكتاب»[٧١].

نقـل ابنُ حجر إيمـاءات لخلاف الطّبريّ وأبي بكـر عبد الله بـن أبي داوودَ قائـلًا: «قال محمّد بـن عبد اللـه القطّان: كنتُ عنـد محمّد بن جرير فقـال رجلٌ: [إنّ] ابن أبـي داوودَ يقرأ على النّاس

(٦٥)«معجم الأدباء»: ٥/ ٢٦٥.

(٦٦) المصدر نفسه: ٥/ ٢٦٥.

(٦٧) المصدر نفسه: ٥/ ٢٦٥.

(٦٨)«سِيَر أعلام النّبلاء»: ١٣/ ٢٠٦.

(٦٩)«تاريخ الإسلام»: ٢٠/ ٣٩٥.

(٧٠) المصدر نفسه: ٥/ ٢٥٤.

(٧١) «سِيَر أعلام النّبلاء» : ١٤/ ٢٧٥.

فضائـل عليّ- رضي الله عنه-، فقـال: تكبيرةٌ من حارس »[٧٢].

والنَّـصّ هنـا واضحٌ، يصفُ عِلـم أبي بكر بن أبي داوودَ بفضائل الإمام عليّ بن أبي طالب-عليه السّـلام- ومعرفتها كعِلم حارس اللّيل الّذي يكبّر في اللّيـل بذكر لفـظ الجلالة فقـط، أي أنّه يقول بصوتٍ عالٍ «الله أكبر »، أو أنّه يذكر لفظ الجلالة فقط، كأن يقـول: «يا الله» حتّى يُعلِم الجميع أنّه يقِظ، الأمـر الّذي بدوره يضيّـع الفرصة على من أراد السّرقة.

ويبـدو أنّ الأمـر تأزّم كلاميًّـا بين الاثنين بعد هـذه المقولة، كمـا ورَد ذلك جليًّا عنـد ابن حجر بقوله: «وقد قام ابنُ أبي داوودَ وأصحابه، وكانوا خَلقًا كثيرًا، على ابنِ جريرٍ ونسَبوه إلى بدعة اللّفظ، فصنّـفَ الرجلُ معتقَدًا حسـنًا، سـمعناه يناضِل عنه »[٧٣].

وزاد الأمـرُ تعقيدًا، كما نقل الذّهبيُّ ذلك بقوله: «وقع بين ابـن جرير وابن أبـي داوودَ، وكان كلٌّ منهما لا يُنصِف الآخَرَ، وكانت الحنابلةُ حزبَ أبي بكر بن أبي داوودَ، فكثروا وشغّبوا على ابن جرير، وناله أذًى، ولزم بيته »[٧٤].

وقد اشتدّ الخلاف بين الحنابلة والطّبريّ حتّى أنّهم سـألوه عن الإمامِ أحمـدَ بنِ حنبل في الجامع يوم الجمعـة، وعن حديث الجلـوس على العرش، فقـال أبو جعفر: «أمّـا أحمدُ بنُ حنبـل فلا يُعَدُّ خلافه، فقالـوا له: فقد ذكره العلماء في الاختلاف، فقـال: ما رأيتُـه رُوي عنه، ولا رأيتُ لـه أصحابًا يُعـوَّل عليهـم. وأمّا حديثُ الجلـوس على العرش فمُحال »[٧٥]. ثمّ أنشدَ:

سُبْحانَ مَن ليسَ له أنيسُ

ولا لـه في عرشِـهِ جليـسُ

فلما سمع ذلك الحنابلةُ منه، وأصحابُ الحديث، وثَبـوا ورَمَـوه بمحابرِهـم، وقيـل كانـت أُلوفًـا، فقام أبو جعفر بنفسـه ودخـل داره، فرموا داره بالحجارة حتّى صار على بابه كالتلّ العظيم[٧٦].

الأمـر الّـذي دعا نـازوكَ، صاحـبَ الشّرطة في بغـداد، وبرفقة عدد من كبير من الجنود، إلى رفع الحجـارة، وبقي في بابه لحمايته يومًا كاملًا حتّى اللّيـل، فأغاظ هذا الأمرُ الحنابلةَ، وحاصروا الدّار، ومنعـوه مـن الخروج حتّـى مـات في داره ودُفن فيها[٧٧].

ونقـل لنـا ياقوت الحمـويّ قولَ ابـن خزيمةَ لأحـد تلاميذه حسـنيك بن علي [الحسـين بن علي التّميميّ] حينما أخبره بأنّه لم يرَ الطّبريّ ولم يروِ عنه شـيئًا عنـد دخوله إلى بغدادَ، بسـبب تعصُّب الحنابلـة، بقوله:«ليتك لم تكتب عن كلّ مَن كتبتَ عنهم، وسـمعتَ من أبي جعفـر، وبِئس ما فعلَت الحنابلةُ بحقّه »[٧٨].

(٧٢) «لسان الميزان» : ٣/ ٢٩٥.

(٧٣) «لسان الميزان» : ٣/ ٢٩٥.

(٧٤) «سِيَر أعلام النبلاء »: ١٤/ ٢٧٧.

(٧٥) «معجم الأدباء »: ٥/ ٢٥٣.

(٧٦) المصدر نفسه: ٥/ ٢٥٤.

(٧٧) المصدر نفسه: ٥/ ٢٥٤.

(٧٨)«معجم الأدباء» : ٥/ ٢٥٤.

الخاتمة:

أسفرَ البحث عن النّتائج الآتية:

١-عمـدَ أبو جعفر الطّـبريّ إلى الاهتمام بمَجالس الـدّرس في بغداد، وأوْلاهـا أهمِّيةً كبرى، بأنْ جعل لكلّ مَجلس علميّ هَيبته ووَقاره، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم في توقير المَجالس.

٢- لم يكن الطّبريّ مُسيَّرًا في كتاباته، والدّليل على ذلـك حياديّته الّتي عُرف بهـا، والّتي عُرف بعدله من خلالها، ولا سـيّما في عدله بين صحابة رسول الله- صلّى الله عليه وآله وسلّم-.

٣- شـهدتْ بغدادُ حركةً علميّةً رائجةً إبّان وجود أبي جعفـر الطّبريّ فيهـا، وكانت صولـةُ الكلام والأمر والنّهي للحنابلة الّذين دخلوا مع أبي جعفر الطّـبريّ بمُحاجّـات علميّة، أفضـت إلى التّضييق عليه، وجعلِه رهينَ داره إلى أن مات فيها.

٤- كشـفتْ مُحاجّـات الطّـبريّ عن سـموّ عِلمه وغزارته وتنوُّع ثقافته وشجاعته.

٥- كان الطّبريُّ موسـوعيَّ المعرفـة، وقد بدا ذلك جليًّا من خلال مؤلّفاتـه الّتي وصل إلينا بعضُها، وحتّـى الّتـي وصـلَ عنوانها فقط، فكشـفتْ عن موسوعيّته في التّأليف.

ثبت المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

- «أحـوال الرّجـال »، أبـو إسـحاقَ إبراهيمَ بـن يعقوبَ الجوزجانـيّ (ت ٢٥٩هـ)، تحقيـق: صبحـي البـدريّ السّامرائيّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٨٤م.

- «البدايـة والنّهايـة »، أبـو الفداء إسـماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شـيري، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٩٨٨م.

- «تاريـخ الإسـلام ووفيَات المشـاهير والأعلام »، شـمس الدّيـن محمّد بن أحمد بن عثمـان الذّهبيّ (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السّـلام تدمـري، دار الكتـاب العربيّ، بيروت، ١٩٨٧م.

- «التّاريـخ الكبـير »، محمّـد بن إسـماعيل البخاريّ (ت ٢٥٦هـ)، تحقيـق: محمّد بن صالح الدّبـاسيّ، الرّياض، ٢٠١٩م.

- «تاريـخ بغـداد »، أبـو بكـر أحمـد بـن عـليّ الخطيب البغـداديّ، (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفـى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٧م.

- «تاريـخ مدينة دمشـق »، أبو القاسـم عليّ بن الحسـن بـن هبة الله ابن عسـاكر (ت: ٥٧١هـ)، تحقيق: عمر بن غرامة العمرويّ، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

- «تذكـرة الحُفّـاظ »، شـمس الدّين محمّد بـن أحمد بن عثمـان الذّهبيّ (ت: ٧٤٨هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د. ت).

- «تهذيب التّهذيب »، أحمد بن علي بن حجر العسـقلانيّ (ت ٨٥٢هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.

- «جامع البيـان عن تأويل آي القرآن »، أبو جعفر محمّد بـن جريـر الطّـبريّ (ت ٣١٠هـ)، دار الفكـر، بيروت، ١٩٨٤م.

- «الجامـع لأحكام القـرآن »، أبو عبد الله محمّد بن أحمد

القرطبيّ (ت ٦٧١هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٩٨٥م.

- «سِـيَر أعلام النّبلاء »، شـمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبيّ (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: شـعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٩٢م.

- «شذرات الذّهب في أخبار مَن ذهب »، عبد الحيّ بن أحمد ابن العمـاد الحنبليّ (ت ١٠٨٩هـ)، تحقيـق: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٦م.

- «شرح صحيـح مسـلم »، محيـي الدّين أبـو زكريا بن شرف النّـوويّ (ت ٦٧٦هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٨٧م.

- «طبقـات الحُفّـاظ »، جلال الدّين عبـد الرّحمن بن أبي بكر السّـيوطيّ (ت٩١١هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٢م.

- «طبقـات الشّـافعيّة »، أبـو بكر بن أحمد الأسـديّ ابن قاضي شـهبة (ت ٨٥١هـ)، تحقيق: الحافـظ عبد العليم خان، بيروت، ١٤٠٧هـ.

- «الكامـل في التّاريـخ »، ابـن الأثـير عليّ بن أبـي الكرم الشّـيبانيّ (ت٦٣٠هـ)، تحقيق: عبد اللـه القاضي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٤م.

- «الكامل في ضعفاء الرّجال »، أبو أحمد عبد الله بن عديّ الجرجانـيّ (ت ٣٦٥هـ)، تحقيـق: يحيى مختار غزّاوي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

- «لسـان الميزان »، أحمد بن علي بن حجر العسقلانيّ (ت ٨٥٢هـ)، مؤسّسة الأعلميّ، بيروت، ١٩٧١م.

- «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر »، أبو الفضل محمّد بـن مكرم، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار الفكر، دمشـق، ١٩٨٤م.

- «معجـم الأدبـاء »، ياقـوت بن عبـد الله الحمَـويّ (ت ٦٢٦هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩١م.

- «معجـم البلـدان »، ياقـوت بن عبـد اللـه الحمَويّ (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

- «مناقب الشّـافعيّ »، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: السّـيّد أحمد صقـر، دار التّراث، القاهرة، ١٩٧٠م.

- «ميزان الاعتدال في نقد الرّجال »، شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبيّ (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمّد معوّض، عـادل أحمد عبد الموجـود، دار الكتـب العلميّة، بيروت، ١٩٩٥م.

- «الوافي بالوَفَيَات »، صلاح الدّين خليل بن أيبك الصّفديّ (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التّراث، ٢٠٠٠م.

- «وَفَيَـات الأعيـان وأنباء أبناء الزّمـان »، ابن خلّكان أبو العبّاس شـمس الدّيـن أحمد بن أبي بكـر (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت، (د. ت).